

على هامش الإحتفاء بالشعر الشعبي

عبدالله البارئ

بشاعرها فلتفتخر كل أمة
يُهددها بالموتِ والعار طغيانُ
إذا طويت أعلامها فهو بريقُ
وان أحمِدَتْ أنفاسُها فهو بركانُ.

وقديماً كان للشعر والشعراء في عصرهم
الجاهلي أسواقٌ مخصوصةٌ تُتشدُّ فيها الأشعار،
وتخلدُ فيها الأمجاد، ويحفظ في ثناياها تاريخٌ ما
كان له أن يُحفظ ويصان لولاها .

واليوم -كما في الأمس القريب- تعيد
وزارة الثقافة سيرتها الأولى في إقامة مثل هذه
المهرجانات الشعرية، لتجدد علاقة المبدعين من

ليس غريباً علينا ولا مستتكرأً منا -نحن
اليمنيين- الإحتفاء بالشعر والشعراء، ما دامت
اليمن أمةً شاعرةً يصوغ الشعراء فيها بدائعها
بالعربية الفصحى وبالأخرى الملحونة. بل لعل ما
ينبغي أن يكون من هذا الإحتفاء ما يزال في
مدارج صعوده الأولى ولما يبلغ أقصى مداه منها،
وهيئات!

وكيف لا يتعاضم الإحتفاء بهم وهم صنّاع البهاء
فيها، ورادتنا نحو قيم الحق والجمال، ومفزعنا
من كل خطبٍ محققٍ وخطرٍ يحيط بنا؟ فهم
مكلاً الأمة من التوابع والزوابع، وعواصمها من
القواصم، وموئلها من التردّي في المهالك. وإن لم
يكن الإحتفاء بهم فيمن تراه يكون؟

في ناقد وأكاديمي من اليمن.

وإذا كان القول السابق قد جرى في حال واحد بعينه من شعراء العامية في اليمن، فإن استخدامه شاهداً في هذا المقام يندرج في مقولة: "عموم اللفظ لا خصوص السبب". ففي كل المبدعين من شعراء العامية في اليمن ما في شعر الباحثين من خلال وسمات. "واللول هو والماس ظاهر ما تخالطه الصهاديد".

والشعر الشعبي، وإن بدا -من جهة الغاية والاتجاه- نتاج وعي فردي تفرزه ذات مفردة، لا ينأى بنفسه عن مواقع الأمة ولا أفرانها؛ فهو يقول ما في أفئدة الناس بلغته، التي تبين وتغمض في آن، ويجسد بالقصيد مجهول ما يعلمه عنهم، في صور منتظمة وطرائق بناء منسوجة بإحكام.

نا من الناس شوفونا وشو الناس مني
لن بوها حياة لي ما لها عز ومقدار
نفسى إلا ترم شفنا على عيال مقدي
الدويلة معي والقبس بايطلع النار
اكبروا كلكم عا ذا الجراد المعلي
بو فرج يقبض المطرب ونا بققع الطار.

هكذا يتحد الفرد في الجماعة، وتحتشد الجماعة في وجدان الفرد، فيغدو لسانها المبين عن حقها في الحياة ورؤاها لها ومواقفها منها.

مفتي الأربعة.. نحنا معك با نصلي
لا تيممت با نتبعك من أكبار وصغار
في الفتن فايده.. والموت من عند ربي
با نحن عالوطن والله يقدر ويختار.

على أن هذا الاتحاد بين وجدان الشاعر الشعبي وبين متقلبات الأحوال في حياة الجماعة لا يعني بحال أن يصير الشاعر بوقاً يردد ما ترومه وتهواه، كلا؛ ولكنه توكيد على صفاء قيثارته التي تصدح بالألحان جميعها، وتضع لكل مقال صفته وتنزله

الشعراء بقراءتهم، وتذكر الغافلين منّا -في زحمة الانشغال بالفاني من مجريات الحياة- بالخالد الدائم منها، والأصيل السامي فيها، وهو ما يمثله الشعر خاصة، والإبداع عامة، في تاريخ الأمم والشعوب.

وإذا كان الشعر -بكل ما في أداة التعريف من استغراق في الجنس- وليد التفاعل الحميم مع الحياة والانفعال الخصب بها، من حيث هي وجود متعدّد المرايا والصور؛ فإن الشعر الشعبي -أو قل الحميني- أشدّ علوقاً بها من حيث المنشأ والمصدر والغاية والاتجاه. فلغته منبثقة من وجدان اللغة التي يتكلم بها الناس، بكل ما فيها من اتحاد بين الدال والمدلول، بين الإحساس بالفكرة والإحاطة بصفاتها في آن. وليس للشاعر الشعبي من مصدر يخصب به إبداعه غير هذا الشعب، وما تخلق عبر السنين من ثقافات شتى تمثل وعيه بالأحياء والأشياء، والشعب ما أعظمه مصدر!

والشاعر الشعبي يحصل فيه مطلوبه وأكثر ومن خلاف الشعر يقدر يجمع الحب المطير ويفتح الأبواب بالإقليد لي ما له حناديد.

فكما قرّر الشاعر حسين بن أبي بكر المحضار في واحدة من بدائع أشعاره.

ولعله لهذا لقي الشعر الشعبي قبولاً في أفئدة المتلقين، وبدأ الشاعر الشعبي وجهة شدة الشعر ومحبيه في كثير من أدوار الزمان.

الليش حبوا الناس شعره ليه قالوا إنه
أشعر

ممن سبق قبله لأنه ما تبجح ما تقعر
جاب الكلام السهل حط وسط الكلام
السهل سكر
وبعد ما رق وانطعم وزعه في كل
البراريد.

منزلته التي هي له؛ وذاك لأنَّ الشَّاعر رائدٌ..
والرائد لا يكذب أهله.

كل من حموله ميل قولوا له تريض يا حسن
شف من شبع نرشخه لما يطرح أيده في عشاها.

ولأنَّ "العسودة ما هي كما ذاك الدفن"، فليس
سوى الشَّاعر من يستطيع الدفاع عن حقوق الأمة
والمنافعة دونها. "ومن أكل لحم الناس ني يخرج
ناجح من شواه"، كما قال شاعرٌ لم يصبر على ضيم
ولم يقبل باضطهاد. وتلك منزلة سامية لا يرقاها
غير شاعر تجرّد من الشّهوات كلّها، وأثر الصلابة
في الموقف على كلِّ شيءٍ زائل.

الرزق يدخل من سبب والموت يدخل من سبب
والسوس يوكل قال شاعر في القواسم والقبال
لا تفرق الضارب وجات العافية شل الذهب
ما بي مهمة لا صفي لي رمح بو زيد الهلال.

وإنَّ من متمّمات القول في اتّحاد وجدان
الشَّاعر الشعبي بالجماعة موقف الشعراء
الشَّعبيين من الوحدة اليمنية مذ كانت حلماً يتوق
إليه اليمنيون حتّى غدت منجزاً يتباهون به بين
الأمم والشُّعوب. ويستطيع الناظر في تلك الأشعار
التي أبدعها شعراء العامية في اليمن في القرن
العشرين أن يتبيّن مدى تفاعلهم مع هذا المشروع
الوطني العظيم، وانفعالهم به حلماً يشتهى، وحدثاً
منجزاً في واقع الوجود.

فإذا قال أحدهم متشككاً:

القرص عاده ما نجح والشَّهر عاده ما ثبت
في المال يا مبارك ولا في الحال والعمر

الطويل

والشوف مبعد والعلايم عاها ما تفنّدت
ما با نسَمي الرقر لما قده يدحق عا الرجيل.

ردّ عليه الآخر مبشراً ومستشرفاً الآتي من

رحم الغيب:

الناس عالشطرنج قد لعبوا وعما لعب الثَّبت
وذرعوا الشَّيدر وقد شافوا القصير والطويل
والمبعدة حسبوا لها إن شَرقت أو غرّبت
بتجي على طول المدى خل الثَّقاله يا ثقيل.

وقد جاءت على طول المدى، وغدت واقعاً
يشهده الجميع. وإنَّ تجلّياها في الواقع المشهود لن
ينسينا فرحة الشعراء بها وقد بدت بشائرها تلوح
في الأفق.

الحباب سقى الباري ديار الحباب
بين سيئون والحوطة وصنعا ومأرب
قد جمع بالهنا والسعد شمل الحباب
خل بالخل يتهنّى وصاحب لصاحب
والأمور سابرة والخير من كل جانب
العسل دوعني والبُر من قاع جهران
دان يا دان بانسمر على نغمة الدان.

ولأنَّ الوحدة كيان أمّة ووجود شعب وهويّة وطن،
فإن الفرحة بإنجازها عظيمة، لا تقاس بمقياس ولا
تحدّد بحدّ. وإنَّ الحرص عليها من أيّ خطرٍ يحرق
بها قائمٌ في الأنفس ويجلوه القصيد:

واليوم وحدنا اليمن والقصد يالشبان

تم

نحننا ذرينا ذري في البلدة وفي نجم

البطين

جنوبها وشمالها نحننا خوة وعيال عم
لا قفلينا الباب.. الشيطان با يعبر

منين

لا عانقت صنعا عدن با يزول من جسمي

الألم

وبا حفظ فلك قد له وقت بين المايتين
يا فرحة الخاطر إذا رفرق على القصبه

العلم

القرش با نصرفه باللازم بزايذ عانتين.

زمن قديم، وما زالت تهجس به في هذا الزمان.
وإنَّ فيما سنسَمعه من هؤلاء الشعراء المشاركين
في هذا المهرجان لدليلاً يؤكد ما خبرناه في أشعار
الشعراء الشعبيين من تفاعل مع مشكلات الوطن
وهمومه وقضاياها.

فشكراً لهم حين يبدعون وحين ينشدون!

وشكراً لوزارة الثقافة إذ هيأت لنا هذا الابتهاج
الدافئ بالشعر والشعراء في زمانٍ غدا فيه وجود
الشعر على حاشية الحياة!

تلك أمانيتهم، ولكن:

اللحم يا سالم شوي والناس بيغوا اللحم جم
وابليس قاعد في التّفال مفتون ما يسدّ
الثنين.

ومن هنا وجب الفداء ووجب الإصرار على
حمايته من كلّ خطب:

قل لكل حاقد وكل طامع ذهن
الوطن ذا ما نبيعه بالثمن
أو نسيبه للزمن أو للحروب
الوطن غالي على كل القلوب.

وهذا غيضٌ من فيض، يدلّ قليله على كثيرٍ من
أمثاله هجست به أشعار الشعراء الشعبيين من